سوسن النورية

للأستاذ محمود دياب خيرت

جرّنا الحديث فى بعض ليالى سمرنا إلى طائفة من الناس لا تتصور المرأة وتنفر من ذكرها لأنها فى نظرها شيطان . وقد احتدم حولها الجدل وتشعبت الآراء حتى صاح أحدنا وكان يسمع ولا يشترك فى الحديث :

أراكم قسوتم عليها وأسرفتم ، مع أن الله حين خلق آدم خلق حواء إلى جانبه ليطيب بها ولتسكن نفسه إليها . أما أنها شيطان فقد يكون فى بعض النساء شياطين ، وكذلك فى بعض الرجال ، والانسان يحمل فى مطاوى نفسه الخير والشر معاً ؛ فإذا رجح أحدهما كان ملكاً أو شيطاناً . ولولا ذلك لما جاءت الشرائع بتعديل نسبتى الخير والشر بين الناس

على أنى لا أتصور كيف يستغنى رجل كائناً من كان عن المرأة وقد ركّز الله فى كيانهما الشهوة ليصونا كيانهما وليتحقق بقاء النوع . إننا نحسّ الحاجة إلى المرأة كما نحس الحاجة إلى الطعام والشراب . إلا أن من الناس من يهيم بها هياماً فلا يملك الصبر عنها كأنهم يحمل معدته فوق ما تطيق فتتخم . كما أن منهم من ينظر إليها كوسيلة وقتية من وسائل الاستمتاع حتى إذا بلغ غرضه منها زهد فيها — ولكنهم جميعاً لن يجدوا مفراً منها وإلا كانوا شاذين على الطبيعة ، لأن حاجة الرجل إلى المرأة وحاجتها إليه من بعض نواميس الغريزة التى لا تخضع لسلطان

واقد عالج هذا الموضوع كثير من الكتاب انتهوا فيه إلى الحد الذى ذكرته. ومع ذلك ألم يقرأ أحدكم قصة تايس ؟

قلنا وما هى قصتها ؟ فقال :

إن هذه الفتاة ابنة خمّار وثنى لم يُعن بها ، حتى إذا آنست (مرهوا) العجوز فى حنجرتها مرونة وفى قوامها ليناً أقبلت عليها تعلمها الغناء والرقص ، فخرجت زهرة ناضرة وخليعة خلاّبة ، أقامت فى أنطاكية وإسكندرية دولة للشهوة خدامها الأمراء والحكام ، وفجّرت فيها بحراً للفسوق تموج لجته بالنضار تطؤه بقدميها اللتين ما عرفتا غير أوحال الفقر . وظل هذا شأنها : كأساً مترعة تطوف بها يد الليالى على الشفاه التى أعطشها الهوى حتى بلغ بافنوس الناسك مدينة اسكندر الأكبر فقام فى نفسه أن يصدها عن سبيل الغواية ويفتح قلبها إلى دين الله

ومن أعجب الأشياء أن هذه الفتاة الهيفاء الناعمة المتحكمة فى كل ذى سلطان نفذت إلى نفسها التى تفلغلت الشهوة فيها أنوارُ الهداية فهان عليها أن تتبعه وآن تحرق قصرها وما ضم من متاع ونعيم حتى لا يبقى أمام عينيها أثر فاتن من ماضيها

أما ذلك الناسك فكأنما أفرغ فيها كل ما وعت نفسه من هدى وتقوى ، حتى إذا وجد الشيطان عنده مرعىً خصيباً نفخ فيه من روحه غوايته فأشعل قلبه بهوى تلك الصالحة ، وهكذا

هداها ولكنه ضل ومات خاسراً . والشهوة الثائرة قد تعصف بالناسك كما تردّ تقوى الله الضالين إلى حظيرة الهدى

ويلوح أن أناتول فرانس واضع هذه القصة أراد بهذه المقابلة بين الهدى والضلال فى نفسين متنافرتين أن يضرب لنا مثلاً على أن محاربة الرهبان نفوسهم لقتل ما غرسه تكوينهم فيها من الشهوة إنما هى خروج على الطبيعة البشرية التى لا يُقهر سلطانها

نعم إن هذه الشهوة كانت أكثر تمكناً فى نفسها منها فيه ، وله من صلاحه ونسكه رادع ولها من ماضيها المضطرب مُغرٍ ؛ إلا أنها فى الواقع سئمت معدة حواسها تكرار هذا اللون من طعام الشهوة فعافته . ولذلك كان انتقالها إلى نور الهداية طبيعياً ؛ وكذلك يافنوس الذي ظل طول حياته يحارب شهوته ويضغط عليها حتى انفجرت ؛ فقد كان نزوله على حكم الغريزة طبيعياً أيضاً

وعند ذلك صاح أحدنا : وما قولك فى أخينا الحلو وهو مع حُسن صورته وشبابه وميسرته يمقت المرأة مقتاً ، حتى أنه ليستثقل أن يمرّ ذكرها بسمعه . بل إنه ليغادر المجلس الذى تُذكر فيه . وربما كان هذا هو الذى هيّأه إلى الاندماج فى الدراويش ومشايخ الطرق فانقطع عنا . فاستمر في حديثه قائلا إن هذا لا يغيّر من القاعدة التى ذكرتها . وانما تعرض أحياناً احداث الدهر للانسان وتصدمه فى بعض خصائص عقله فيقوم بين ذاكرته وبينها سدٌّ . إذ لكل عاطفة تجيش فينا ويشعر بها مخّنا مكانٌ بين تلافيفه قد يتأثر بمثل هذه الأحداث فتفقد هذه العاطفة دون أن نفقدها جاورها . وإنى لأعرف محامياً فى مصر كان علماً من أعلامها صادفته ظروف قاسية أصبح على أثرها يجهل القراءة والكتابة كأنه لم يتعلمهما . بل إنه كان لا يذكر اسمه ولا يعرف كيف يكتبه . وهذه مسألة ثابتة من مسائل الطب الشرعى . ثم يدريك أن بعض هذه الظروف وقعت لصاحبك وكان سببها المرأة . بل من يدريك أن المرأة أيضاً قد تهدم فى يوم من الأيام هذا الهوس الطائفى الذى تمكّن منه وصرفه عن العمل النافع الذى خلقنا الله له ؟

وعند ذلك طرق أسماعنا وقع أقدام تقترب منا ثم دخل علينا حسن أفندى الحلو نفسه وهو يصيح : على شرط ألا تتعرّضوا لذكر المرأة . فضحكنا وأخذنا نحيّيه ونعتب عليه لانقطاعه وقد لفّ حول طربوشه عمامة خفيفة ترك ذؤابتها تتدلى على إحدي كتفيه . وكانت أصابعه تمرّ على حبات سبحته حتى إذا ما فرغ قال : والله لقد هزنى الشوق فاستأذنت إخوانى الليلة لأزوركم

كم كنت أودّ لو أنكم أخذتم عهداً مثلى فكنتم تقطعون الليل والنهار بالعبادة بدلا من هذا الهذيان الذى أنتم فيه . إنكم تجهلون مبلغ حلاوة الأيمان بالتوجه إلى الله والفناء فيه . لا تبحثوا عنه فى المساجد أو غيرها ولكن ابحثوا عنه فى بواطنكم . استمعوا إلى الصوت الذى ينادبكم بين جنوبكم . وليكن لكم قاض من أنفسكم هو الضمير ، ورادع يحول بينكم وبين الريع هو خشية الله . ثم إياكم أن تغفلوا عن ذكره فانه بذكر الله تطمئن القلوب . انى أصبحت أحتقر هذا الوجود الفانى وزخرف هذه الحياة الكاذب . أشعر وأنا فى حضرة الله كأنى ملك أسرح فى ملكوته وأسبح فى سمواته . أصبحت

أحسّ أنني لم أعد مادة بل معنًى . لا يشغلني عنه شاغل من أمور الدنيا ولا يستهويني بريق ضلالها وباطلها . على أنني لم أبلغ هذه المرتبة إلا بعد جهاد عنيف مع حواسي ، وحرب طويلة بيني وبين نفسي. والحمد لله على أنها ماتت . لقد ماتت . إنها ماتت . الله أكبر الله أكبر : لا إله إلا الله ..

وكان يردّد ذلك بصوت عال ، وقد أخذ يدور في الغرفة وجسمه ينتفض وبصره زائغ ، ثم سقط وقد غاب عن صوابه وتصلبت أطرافه ... فأسرعنا إليه ننفخ وجهه بالماء والخل وندلكه بالكحول ونحرك أطرافه برفق ، حتى إذا عاد إلى صوابه وفتح عينيه تملكه الغضب وأخذ يصيح : لم أيقظتموني ؟ لمَ لم تذروني وشأني ؟ إنني كنت في الحضرة القدسية ، وقد ارتفعت من دوني أستارها وغمرتني أنوارها ... والله لا ضمّني وإياكم مجلس . ثم انفلت من بيننا وصدى تكبيره وتهليله يصل إلى أسماعنا ثم يضعف شيئاً فشيئاً حتى انقطع

* * *

وكان حسن افندي يملك غير أطيانه قصراً في الزمالك أعده لأسرته ، ومنزلا بالجيزة يطل على ترعة السواحل قريباً من محطة السكة الحديدية ، وهو قديم شيده أجداده ، وكان يقيم به ويستقبل في فنائه الفسيح إخوانه في الطريقة ، فكان في أغلب الليالي وبخاصة في ليالي الحضرة يموج بهم وتدوي أصواتهم في أركانه بالصلوات والأذكار

على أنه للترويح عن نفسه كان في كل أسبوع يستقلّ عقب صلاة العصر ترام الأهرام إلى كازينو مدينة الجيزة ، حتى إذا استراح به بعض الوقت صعد إلى الصحراء يستنشق هواءها قليلاً ثم يعود

وفي إحدى تلك المرات بعد ذلك الحادث الذي وقع له عند أصدقائه أمسى عليه الليل وكان الهواء رطباً عليلا والقمر قد برز من جانب الأفق ينشر على الصحراء غلالة رقيقة من نور هادئ لطيف ، فطاب له السير أمامه على غير وجهة . وكان كلما ابتعد عن الأهرام لاحت أشباحها من خلفه كالخيام الجبارة تشرف على فضاء هذه الصحراء التي مرت عليها القرون وأشرق في ربوعها العلم والبأس والحكمة من عهد الملوك الأقدمين . وعند ذلك يفكر في عظمتها وعظمة من شيدوها . ولكنه لا يكاد يرفع بصره إلى السماء وإلى هذا القمر الذي يسبح فيها من ملايين السنين حتى تلوح له ضئيلة حقيرة في جانب عظمة الله وقدرته . وتأخذه هزة ساحرة فينطلق لسانه بالتكبير ، وكأن الأهرام من مضخمات الصوت ترجع صدى صوته عالياً يدوي في أجواء هذا الفضاء

وكان في أثناء سيره تعثر قدماه بعظام أوفر طولاً وحجماً من عظام الانسان فيذهب إلى أنها من بقايا الجمال النافقة

وعند ذلك ينتقل بخاطره إلى هذا الحيوان العجيب فهو ساكن رابط الجأش على عكس الخيول يقطع لجج الصحاري التي لا تنتهي بغير أن يقف ودون أن يأكل أو يشرب . لا يؤثر فيه التعب أو أنه يتحمله صابراً . وإذا مرض كتم مرضه لا يبديه وقائده الذي يسمع من بعيد زئير الوحوش وصهيل الخيول وأصوات الناس لا يسمع وهو على قيد خطوة منه غير شهيقه وزفيره دون شكوى أو أنين ، حتى إذا أفهكه الجهد وغلبه الألم وأومى جلده الحرمان وشعر بأنه موف على الهلاك هوى إلى الأرض ومد

عنقه فوق الرمل ثم أغمض جفنيه مستسلماً لمصيره

كان حسن يلمس عظمة الله فى السماء وشموسها والأرض وما فوقها وما في جوفها وما فى نفسه وما هو دونها وهو يقول :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولقد سرقه جمال الطبيعة وسحرها فكان يسير أمامه لايلوى على شيء . حتى إذا ابتعد عن الأهرام وأحس التعب فكر فى العودة لولا أن صوت مزمار (أرغول) طرق أذنيه وهو يظهر ويختفى فى تموجات الريح ، وكأنه أنة حزين تشق سكون الليل ، فقام فى نفسه أن يقصده فلعله حفلة ذكر قامت فى وسط الصحراء ، وتحت قبة السماء الصافية بعيدة عن ملاهى المدينة وشرورها

وأخيراً بلغ مكان الصوت فإذا به صورة مصغرة من قرية متنقلة متواضعة تتكون من ستة أخبية من الشعر على مسافات متقاربة وقد انتثر من حولها فرسان وبعض حمير وعدد من خراف ومعز غير قرد وكلب كان ينبح عند قدومه . وعلى مسافة غير بعيدة عربة كبيرة يظهر أنها معدة للنقل

ولما دنا من أهلها حياهم فنهضوا لتحيته ثم أعدوا له فروآ غزير الصوف جلس عليه . أما رئيسهم وهو شيخ أبيض اللحية طاعن فى السن فصاح ليعدوا له القهوة . وكانت البقعة تموج بالرجال والنساء والأطفال يستمعون إلى صوت المزمار ، كما أن فتاة حلوة القسمات فى العشرين من عمرها كانت ترقص على صوته ، فلما وقع بصرها عليه فرت لتختفى خلف تلك الأخبية

— شرفت يا حضرة الأفندى

— الله يحفظك . لعلى لا أكون ثقلت عليكم .

ولكنى سمعت صوت مزماركم عند الأهرام فشغفنى فجئت

— أهلاً وسهلاً ! يا مرحبا يا مرحبا !

— وهل هنا مقامكم دائماً ؟

وعند ذلك ضحك الشيخ وقال :

— كلا يا سيدى . إننا قوم رحّل نطوى الأرض ولا نقيم حيثما نحط إلا مقدار ما نأخذ قسطنا من الراحة . إنك ترى هنالك وسائل عيشنا نطرق الحديد ونطلى النحاس . ومن أولادنا من يحسن السير فوق الحبال المشدودة والوثب والدوران فى الهواء وغير ذلك من الألعاب البهلوانية كما أن منا من يطوف بهذا القرد وذلك الجحش أزقة القرى التى نستقر فى ضواحيها . على أن من نسائنا أيضاً من يجدن قراءة الخطوط بالودع ...

— بالودع ؟ ... أنتم إذن ... ؟

— قلها يا سيدي ولا تخف ... إننا من النوَر ؛ من هؤلاء الذين يصب أهل المدن عليهم صواعق احتقارهم ومقتهم ، والله وحده عليم بما تنطوى عليه نفوسنا من الوداعة والأنصاف ، ورعاية الجميل ؛ لانقبل الضيم ولذلك ليس لنا وطن يأوينا ويقيدنا ، ونهيم على وجوهنا فى طلب الرزق طليقين لأننا نعشق الحرية ونقدسها . أما سخط أهل الحواضر علينا فلأن فريقاً من الناس — وليسوا منا — يعبثون ويسرقون تحت ستار هذا الاسم الذى يضم طوائف النور جميعاً فى الشرق وفى الغرب ...

— وفى الغرب ... ؟

— نعم وربما أدهشك أننى أجيد اللغة التركية وأتكلم الاسبانية قليلا لأنى طفت فى شبابى بالأندلس وبالأناضول واختلطت بالنور المتجولين

فيهما . بل ربما أدهشك أني أتكلم بلغة عربية لاعيب فيها لأني حفظت القرآن صغيراً وقرأت الكفراوى والأشمونى بالأزهر ، بل إن ابنتى لتقرأ وتكتب لأنى علمتها . ولو لم يمت أبى لكان لى اليوم شأن آخر . وهكذا اضطررت إلى أن أخلفه على هذه القافلة

وعند ذلك انطلقت من خلف الأخبية صرخة شقت الفضاء لفتت الشيخ ومن معه وإذا بسوسن ابنته (وهى تلك الفتاة التى كانت ترقص) تعدو حتى ارتمت فى حجر أبيها وهى تقول : ألم أقل لك وله إنه لم يعد زوجى ؟ ثم انهمات دموعها فأخذ يلاطفها ويداعب خديها بأصابعه النحيلة ويقول : نعم ياسوسن لقد طلقته فلم يعد له بك صلة . طيبى نفساً واقصدى إلى الخباء فنامى ، وعند ذلك مسحت دموعها بطرف ثوبها وصدعت بأمره . أما هو فنادى على ذلك الزوج (واسمه برعى) وأنبه وحذره من الاستمرار فى غوايته وإلا طرده . فتراجع مخذولا حزيناً ثم اختفى . وبعد ذلك التفت الشيخ إلى ضيفه وكأنه أدرك ما يتردد فى نفسه فقال : إن الزواج عندنا سهل يا سيدى يكفى فيه رضى الطرفين وشاهدان منا

— حسناً ، ولكن هذا الطلاق ... ؟

— والطلاق عندنا حق لهما . ألم تجز الشريعة أن تكون العصمة بيد الزوجة ؟ لذلك كان جائزاً في طائفتنا التى نشأت على المساواة والحرية . وهكذا لا يتحكم الزوج فى امرأته وهو يرى نفسه مهدداً بهذا الحق فيجتهد أن يصون علاقته معها بالاحسان والحب !

— وإذا كرهها أو كرهته ؟

طبيعى عندئذ أن يستعمل كلٌّ حقه ، فأنت لا تتصور كيف يطيب الزواج عند نفسين يقوم بينهما سد من الكراهية والبغض

وكان حسن افندى يتألم فى نفسه ويستغفر الله فى سره ، ولكنه مع ذلك أكبر هذا الرجل وأعجب به فنهض وهو يقول : ليت يتيسر لى الاجتماع بك مرة أخرى . ومع ذلك فلمَ لا تشرفنى أنت بزيارتك ... ثم دله على منزله وحيّا . وكان الشيخ قد أعد له إحدى الفرسين واثنين من رجاله يرافقانه ولكن كم كانت دهشته لما بلغ الكازينو وقد رأى سوسن .. أمامه !

* * *

إذن هى لم تنم كما أوصاها أبوها . ولعلها كانت أيضاً تنصت إلى ما دار بينهما من الحديث . ولكن ما الذى دفع بها إلى تعقبه ؟ ألعلها أرادت أن تمتّع عينيها بسحر ذلك الليل الفاتن ؟ ولكنها كانت تنعم به أيضاً وهى إلى جانب أبيها . ومع ذلك فقد كانت وهو يصعد إلى عربة الترام واجمة مشدوهة تكاد عيناها تفلتان ما حبسته فيهما من الدمع ، وتكاد صرخة الألم المكتومة فى صدرها تنطلق من شفتيها

وصرت به كذلك حادثة برعى معها وانصرافه ذليلا من لدن حضرة أبيها ، ولكنه كان يكره المرأة ويجهل معنى الحب ومعنى العذاب فيه ، ثم كان يشعر بما شعر به ذلك الفتى من الحزن ولا بما كانت تحسه من النشوة وقد أصبح فؤادها طليقاً

كانت هذه الخواطر تتزاحم فى نفسه على أثر وصوله عند منتصف الليل إلى داره . ولكن التعب الذى عاناه كان فوق احتماله فانحدر إلى فراشه واستسلم للنوم

وكان حسن أفندى يحرص على أداء الفروض

فى أوقاتها ولا سيما صلاة الفجر . ولكنه لما استيقظ كان النهار قد ولّى ودخل الليل ، وهو مع ذلك لا يستطيع الحركة محطما خائراً كأنه يرزح تحت حمل ثقيل ، وكانت أعصابه مشدودة وخواطره مفككة . على أنه نهض أخيراً وصعد إلى سطح الدار فرآى القمر يبدو قرصه عند حدود الأفق ولكنه لم يأبه له وهو الذى حين رآه بالأمس انتقلت به نفسه إلى قدرة الله وعظمته ، ثم مدّ بصره إلى الغرب فإذا بالأهرام تلوح أشباحها الشامخة من بعيد ، فتذكّر الليلة الماضية ورحلته إلى تلك القافلة وتذكر ذلك الزمّار الذى كان يعزف على نقرات الدف وتلك الصبية التى كانت ترقص كأنها عروس الصحراء

وعند ذلك انبسطت نفسه واستقرت خواطره وأحس دبيباً يجرى فى جسمه ، ونشوة تتمشى فى مفاصله ، وهو لا يهتدى إلى سبب ذلك . ولكنه يعود فيذكر تلك الفتاة الجميلة الرشيقة الليّنة فلا يشعر نحوها بتلك الكراهية التى تناولت فى عينيه كل بنات حواء . بل إنه كان يجد فيها دليلا ناطقاً بعظمة الله . وهكذا ينتقل بتلك العظمة من الكون بأسره إلى تلك الفتاة التى أصبحت شغله يراها إذا نام وإذا استيقظ وإذا صلى وإذا سبح ، وهو على كل حال سعيد راض ما دام أنها صارت وسيلته إلى الاتصال بالله ...

غير أنه يعود فيذكرها وهى ترقص ، وقدها يتثنى كالخيزرانة وردفاها يترجرجان كأنهما الموج ، ونهداها يطلان من فتحة قميصها كأنهما هرمان صغيران ، ثم يتدرج إلى عينيها وما تشعانه من سحر الفتنة ، وإلى أنفها الحلو الدقيق ، وشفتيها القرمزيتين الشهيتين ، وابتسامتها التى يبتسم الوجود كله فيها فينزه طرف خياله فى محاسنها ويؤمن بالله وعظمته فى صنعه . ولكنه يكون قد انتقل بها هذه المرة من صفاء الروح إلى كثافة المادة

ثم يذكرها حين لحقت به وهو يهم بالعودة والدموع حيرى فى عينيها وهى حزينة خاشعة لأنها أعجبت به ومال قلبها إليه ، فيشعر كأنها أخذت تهبط رويداً رويداً إلى أعماق نفسه . ولكنه يذكر أيضاً موقف ذلك الفتى اليائس معها وما أصابه من الانكسار والذلة عندها فيقول : سبحان الذى أذله بها وأذلها بى . ولكنه يعود فيخيل إليه أن شيخه الذى عاهده على التقوى عند رأسه ينظر إليه شزراً ويؤنبه على ما فرط فى حق الله فينتبه مذعوراً وقد انتفض جسمه وضلت نظراته ، ويدرك أن الشيطان إنما يوسوس له ليخرجه من رحمة الله كما أخرج آدم من جنته فيعود باللوم على نفسه الأمارة بالسوء ويسارع إلى البكاء والندم والاستغفار

وظل حسن افندى على هذا أياماً ينساها ثم يحن إليها ، ويصرف نفسه عنها ثم يعود إلى ذكرها ، كأنها حمى متقطعة تذهب وتعود ، وكأن لصورتها مداً وجزراً فلا تكاد تنحسر عن خياله حتى تطغى عليه إلى أن جاء يوم دخلت عليه فيه وهى تتخطر كالغصن فانفرجت أساريره وأشرق وجهه وقد مد إليها ساعديه ليضمها إلى صدره وهو يقول : تعالى يامستودع شقائى ونعيمى ، وياخيال يقظتى وحلمى ، لمَ أخلف أبوك وعده فلم يزرنى ؟

قالت : لقد انتقلنا إلى مقربة منك . أنظر . ثم أخذته إلى نافذة قبلية تطل على فضاء استقرت القافلة فى وسطه ، ثم قالت : ولكننا لن يطول بنا المقام هنا فقد عزم أبى على الرحيل مع الصبح غداً ؛ ولهذا

أسرعت إليك فقد لا أراك بعد ذلك ... ولكنها حدقت فيه كأنها تتحسس ما يجيش فى صدره وقد حدثته نفسه أن يخالسها قبلة فسبقته إليها وعند ذلك طوّقها بساعده وضمّها إلى صدره فدبت حرارة جسمها الدافئ فيه واستيقظت الشهوة المكبوتة فى نفسه وقد توترت أعصابه واحتقن وجهه واتسمت حدقتاه وتلاحقت أنفاسه فحملها إلى منضدة قريبة وقد أخذ العراك العنيف يصطرع بين فجوره وتقواه حتى تغلب شيطانه فهمّ بها ، ولكنها دفعته بساقيها إلى بعيد ، ثم قفزت إلى مقربة من الباب تضحك بملء فيها وتقول : لقد أخطأ حسابك فما كنا نحن بنات النور لنؤخذ غصباً ، ولكن إذا كنت إلى هذا الحد تحبنى فلم لا تتزوج بى ؟

— فقال :

رضيت يا سوسن وستكونين هنا ملكة على عرش قلبي ، وصاحبة الأمر والنهى فى هذه الدار وفى كل ما تملك يدى ، وستغرقين بعد الذى أنت فيه فى الديباج والذهب والحلى ...

ولكنها عند ذلك أشاحت بوجهها عنه قائلة : مالى ولكل هذا الذي ذكرت ؟ إننى لن أغيّر هذه الأسمال التى علىّ ولن أستعيض عن هذا العقد بغيره وإن كان من الخرز ، ولا عن هذا القرط وهذه الدمالج بسواها وإن كانت من النحاس . لقد درجنا على القناعة . حسبنا بالشمس والهواء والحرية نعيما نمرح فيه ، ومع ذلك فان بينى وبينك من فوارق البداوة والحضارة سداً ... إلا إذا نزلت على ديننا وعشت معنا كأنك منا . ولكنك لن تفعل فخير لك ولى إذن أن ننسى ما فات . ثم انطلقت نحو الباب ...

... خرجت بغير أن تتردد أو تلتفت قوية عزيزة وهي التى ليلة تعقّبته كانت تفيض عيناها بالدمع وملاحها بالأمى خائرة ذليلة

ولا ريب أنها كانت تحبّه وتتهالك عليه وقد فرغ قلبها من برعى . والطبيعة تنفر من الفراغ ، فقلبها لن يعيش بغير الحب ؛ ولا يفتأ عامراً به لأنه غذاؤه وجنّته

على أنها لم تكرهه أيضاً ساعة غادرته على تلك الصورة . وإنما وجدت نفسها بين دافعين من حب تمكن منها وتقاليد ورثتها واستقرت فى دمها . ولو أنها كانت من غير بنات النور لاحتفظت بحبه ولسخرت من تلك التقاليد القاسية الجافة وأمامها من متاع الدنيا ضياع وقصور وحلى ومال وترف ونعيم ، ولكنها آثرت على كل ذلك أسمالها البالية وحليها الرخيص الكاذب . بل إنها عافت نفسها أن تتزوج من غير قبيلتها بفتى لا يحمل فى نفسه وفى ذمه عاداتها وتقاليدها . وقد لك هان عليها ذلك الحب ونعيمه في سبيل رعايتها والقيام عليها

ولو أن حسن أفندى كان تأثر خطواتها عند رحيلها لرآى كيف أنها أسرعت إلى خباء أبيها وارتمت عند ركن منه تتململ وتئن وعيناها تسكبان الدموع السخينة وصدرها يرتفع وينخفض تحت تأثير أنفاسها المتسارعة الحارة ، ولعلم إلى أى حد هو عزيز على نفسها ، وإلى أى حد هى تحبه وتجود بحياتها فى رضاه . ولكنها هان عليها أن تحطم هناءها بيدها على أن تكفر بتلك التقاليد

أما هو فكان عند انصرافها حائراً ذاهلا وقد صدمه شرطها إذ يستحيل عليه أن يخضع له أو يفكر فيه؟ وله هو أيضاً من كرامة تقاليده ما يقف

ما يقف حائلا بينه وبين الاسترسال فى هذا الحب . والتقاليد عقيدة كالدين من خرج عليها كان كالمرتد . ولذلك حمد الله على أن وقف بهما الأمر عند هذا القدر وعلى أن قافلتها سوف لا تقيم أكثر من سواد ليلة ثم ترحل فلا يعود يفكر فيها ولا يلبث أن ينساها

وقد كان من أسباب الترفيه عنه أن تلك الليلة كانت من ليالى الحضرة وقد أقبل إخوانه فانخرط فيهم وأخذوا يذكرون الله ويتلون الأوراد ويرتلون دلائل الخيرات . ثم انتصبوا للذكر فما كاد يرتفع صوت الناى ويغنى المنشد : ياسليح اللمى وحلو الثنى . حتى انتقل خاطره إلى الصحراء ينصت إلى صوت ذلك الأرغول وهو يثير الحنين . وينظر إلى تلك الفتاة وهى تملأ عينيه بسحر تأودها وتثنيها . وعند ذلك ذكر ما كان من أمرها معه فصرخ صرخة هزت المكان وسقط على أثرها بغير وعى فنقلوه إلى غرفته ثم انصرفوا وهم يهللون ويكبرون لأن روحه الصالحة النقية فازت بالحظوة عند الله وتجلت عليها أنوار السماء ...

ولم تلبث هذه الغشية قليلا حتى أفاق فأخذ يبكى كالطفل وقد أدرك أن حبها قد تمكن منه وأن علته بها أصبحت بحيث لا ينفع فيها طب ولا يصرفها عنه صلاح أو تقوى . وعند ذلك انتقل إلى تلك النافذة فإذا بالسكون شاملاً وبالخيام التى كانت تموج بالحركة ساكنة هاجعة فيحدق فيها كأنه يتبين أيها تحوى تلك الفاسية التى نعم جفناها بالنوم وهو بعيد عنه

ولكن لم يواصل التفكير فيها وقد انقطع كل ما بينهما ، ولم لا يحاول النوم هو أيضاً فيضع به حداً لهواجسه وعذابه ؟ وهكذا عاد فانطرح فوق سريره وغلبه سلطان النوم ، ولكنه كان نوماً قلقاً مضطرباً حتى استيقظ فجأة عند الفجر على ضوضاء وجلبة من جانب ذلك الفضاء فأسرع إلى النافذة ولكنه لم يجد للأخبية أثرا . ورأى العربة تتهيأ للرحيل يتقدمها أفراد القافلة ومن خلفها شبح لم يكن غير شبح سوسن لأنها كانت تتلفت إلى جهته كأنها تتزود منه وتودعه ، فطارت نفسه جزعا واندفع كالسهم إلى الطريق . ثم أخذ يعدو وينادى حتى لحق بها ...

« القاهرة » محمود ضيرت

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألمانى والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات فى الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة العشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثانى فى جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من
شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا